الفصل الخامس والثلاثون

فى ذكر اتصال الإيمان بالإسلام فى المعنى والحكم وافتراقهما فى التفصيل والاسم، وأن كل مؤمن مسلم، وتحقيق القول بالعمل، وإبطال مذاهب الجهمية والكرامية والحرورية، وبيان مذهب أهل السنة والجماعة، وفقنا الله تعالى لذلك

قال قائلون: الإيمان هو الإسلام. وهذا قد أذهب التفاوت والمقامات، وهذا يقرُب من مذهب المرجئة.

وقال آخرون: إن الإسلام غير الإيمان. وهؤلاء قد أدخلوا التّضادّ والتغاير، وهذا قريب من قول الإباضية.

فهذه مسألة مشكلةٌ تحتاج إلى شرح وتفصيل. فمَثَلُ الإسلام من الإيمان كمَثَل الشهادتين إحداهما من الأخرى فى المعنى والحكم. فشهادة الرسول غير شهادة التوحيد؛ فهما شيئان فى الأعيان، وإحداهما مرتبطة بالأخرى فى المعنى والحكم كشيء واحد. كذلك الإيمان والإسلام أحدهما مرتبط بالآخر، فهما كشيءٍ واحد[1]، ولا إيمان لمن لا إسلام له، ولا إسلام لمن لا إيمان له، إذ لا يخلو المسلم من إيمان به يصح إسلامه، ولا بد للمسلم من إيمان به يحقُّ إيمانه، من حيث اشترط الله سبحانه وتعالى للأعمال الصالحة الإيمان، واشترط للإيمان الأعمال الصالحة، فقال فى تحقيق ذلك: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلاَ كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ [الأنبياء: ٩٤]. وقال فى تحقيق الإيمان بالعمل: ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾ [طه: ٧٥].

ومَن كان ظاهره أعمال الإسلام لا يرجع إلى عقود الإيمان بالغيب فهو منافقٌ

(١) من قوله: «فى المعنى والحكم» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

نفاقًا ينقل عن الملّة، ومن كان عقده الايمان بالغيب، لا بعمل بأحكام الايمان وشرائع الإسلام، فهو كافرٌ كفرًا لا يثبت معه توحيد، ومن كان مُؤمنًا بالغيب مما أخبر به الرَّسولُ عن الله سبحانه، عاملاً بما آمن به، فهو مُؤمنٌ مُسلمٌ، ولولا أنّه كذلك لكان المؤمن يجوز أنْ لا يُسمَّى مسلمًا، ولجاز أن لا يُسمَّى المسلم مؤمنًا بالله تعالى، وقد أجمع أهل القبلة أن كل مؤمن مسلم، وأن كل مسلم مؤمن بالله تعالى[1] ورسله وكتبه.

ومَثَلُ الإيمان من الأعمال كمَثَل القلب من الجسم، لا ينفك أحدهما من الآخر، لا يكون ذو جسم حى لا قلب له، ولا ذو قلب لا جسم له؛ فهما سببان منفردان، وفى المعنى والحكم متصلان. ومثلهما أيضًا مثل حبّةٍ لها ظاهرٌ وباطن، وهى واحدة لا يقال حبتان؛ لتقارب وصفيهما. فكذلك أعمال الإسلام من الإيمان: الإسلام هو ظاهر الإيمان وهو أعمال الجوارح، والإيمان باطن الإسلام وهو أعمال القلوب.

روى عن النبى ﷺ: «الإسلام علانية والإيمان سر». وفى لفظ آخر: «والإيمان فى القلب». فالإسلام أعمال الإيمان، والإيمان عقود الإسلام. فلا إيمان إلا بعمل، ولا عمل إلا بعقدٍ، ومثلُ ذلك مثل العلم الظاهر والباطن؛ أحدهما مرتبط بصاحبه من أعمال القلوب وأعمال الجوارح.

ومثله قول رسول الله ﷺ: «إنّما الأعمال بالنية» أى لا عمل إلا بعقد وقصد؛ لأن قوله ﷺ: «إنما» تحقيق للشىء ونفى لما سواه، فأثبت بذلك عمل الجوارح من المعاملات وأعمال القلوب من النيات. فمثل العمل من الإيمان كمثل الشفتين من اللسان، لا يصح الكلام إلاّ بهما؛ لأن الشفتين تجمع الحروف، واللسان يظهر الكلام، وفى سقوط أحدهما بطلان الكلام، كذلك فى سقوط العمل ذهابُ الإيمان. ولذلك عدّد الله تعالى فى نعمته على الإنسان بالكلام ذِكرَ الشفتين مع اللسان فى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَجعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسانًا وَشَفَتَيْنِ﴾ [البلد:٨ ـ ٩].

(١) من قوله: «وقد أجمع» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

المعنى: ألم نجعله ناظرًا متكلمًا؟ فعبّر عن الكلام باللسان والشفتين؛ لأنهما مكان له، وذكره الشفتين لأن الكلامَ الذى جرت النعمة به لا يتم إلا بهما.

ومَثَل الإيمان والإسلام أيضًا كفُسطاطٍ قائم فى الأرض له ظاهرٌ متجاف وأطناب، وله عمود فى باطنه، فالفسطاط مثل الإسلام له أركانٌ من أعمال العلانية والجوارح، وهى الأطناب التى تمسك أرجاء الفسطاط، والعمود الذى فى باطن الفسطاط مثله كالإيمان لا قوام للفسطاط إلا به، فقد احتاج الفسطاط إليهما، إذ لا استقامة له ولا قوة إلا بهما، كذلك الإسلام من أعمال الجوارح، ولا قِوامَ له إلا بالإيمان، والإيمان من أعمال القلوب لا نفع له إلا بالإسلام؛ وهو صالح الأعمال.

وقد عبّر الله تعالى عن الإيمان بالإسلام، فلولا أنّهما كشىء واحد ما عبّر عن أحدهما بالآخر، فقال سبحانه: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۞ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات ٣٥ ـ ٣٦] ولم يكونا بيتين، إنّما هم أهل بيت واحد؛ لرط وبناته.

وقال عز وجل فى مثله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فعطف بقوله: ﴿إن كنتم مسلمين﴾ على قوله: ﴿إن كنتم آمنتم﴾. فدل على أنهما اسمان بمعنى واحد؛ وهذا كقوله تعالى فيما عبّر عن الأيام بالليالى، لأن اليوم مرتبط بالليلة، وأنت تعلم أنهما شيئان، فقال فى قصة واحدة: ﴿قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾ [آل عمران: ٤١]. وقال أيضًا سبحانه: ﴿آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٠].

وأيضًا فإن الله تعالى قد جعل ضدَّ الإسلام والإيمان واحدًا، فلولا أنهما كشىء واحد فى الحكم والمعنى ما كان ضدهما واحدًا، فقال سبحانه: ﴿كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَومًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ [آل عمران: ٨٦]، وقال: ﴿أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]، فجعل ضدّهما الكفر.

وعلى مثل هذا خبر رسول الله ﷺ عن الإيمان والإسلام بوصف واحد، فقال في حديث ابن عمر: «بنى الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت». وفي حديث ابن عباس عن وفد بني عبد القيس أنهم سألوه عن الإيمان فذكر هذه الأوصاف، فدل بذلك أنه لا إيمان باطنٌ إلا بإسلامٍ ظاهرٍ، ولا إسلامَ علانيةً إلاّ بالإيمان سراً، وأن الإيمان والعمل قرينان، لا ينفع أحدهما بغير صاحبه، ولا يصح أحدهما إلا بالآخر، كما لا يصحان ولا يوجدان معًا إلا بنفي ضدّهما وهو الكفر، كما روى عن النبي ﷺ: «لا يكفر أحدٌ إلا بجحود ما أقرَّ به».

وأظهرُ من حديث ابن عباس آنفًا أنّ في نفس حديث ابن عمر ذكرَ الإيمان أيضًا بدلاً من لفظ الإسلام. ورواه جرير، عن سالم بن أبي الجعد، عن عطية مولى بني عامر، عن يزيد بن بشر قال: «أتيتُ ابنَ عمر، فجاءه رجل فقال: يا أبا عبد الله ما لك تحجّ وتعتمر، وقد تركت الغزو؟ قال: ويلك! إن الإيمان بني على خمس: تعبدُ الله تعالى، وتقيمُ الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتحجُّ البيت، وتصوم رمضان، كذلك حدثنا رسول الله ﷺ.

وقد اشترط اللهُ تعالى للإيمان العمل الصالح، ونفى النَّفع بالإيمان إلاّ بوجود العمل، كما شرط للإيمان الإسلام فقال تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠]. إجماع من أهل التفسير: إلاّ من تاب من الشرك، كقوله تعالى: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ﴾ بعد قوله: ﴿وخُذُوهُم وَاحْصُرُوهُمْ﴾ [التوبة:٥]. وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُم عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ [سبأ:٣٧]. وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يونس:٦٣]. كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾ [الزخرف:٦٩].

فاشترط للإيمان الأعمال والتقوى، كما اشترط للأعمال الصالحة الإيمان. فكما لو عمل العبد الصالحات كلَّها لم تنفعه إلا بالإيمان، فكذلك لو آمن من الإيمان

كله لم ينفعه إلا بالأعمال. وفي وصية لقمان لابنه: يا بُنيَّ، كما لا يصلح الزرع إلا بالماء والتراب، فكذلك لا يصلح الإيمان إلا بالعمل والعلم.

فأما تفرقة النبي ﷺ في حديث جبريل عليه السلام لما سأله ما الإيمان، فقال: «أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله وبالبعث بعد الموت وبالحساب وبالقدر خيره وشره». ثم قال: ما الإسلام؟ فذكر الخصال الخمس؛ فإن ذلك تفصيل أعمال القلوب وعقودها على ما توجب هذه المعاني التي وصفناها، أن تكون عقودًا من تفصيل أعمال الجوارح، فيما توجب الأفعال الظاهرة التي وصفها أن تكون علانية، إلا أن ذلك يفرِّق بين الإسلام والإيمان في المعنى باختلاف وتضادٍّ، وليس فيه دليلٌ على أنهما مختلفان في الحكم، إذ قد يجتمعان في عبد واحد مسلم مؤمن، فيكون ما ذكره من عقود القلب وصفَ قلبه، وما ذكره من العلانية وصفَ ظاهر جسمه. والدليل على ذلك أنه جعل وصف الاسمين معنًى واحدًا، في حديث ابن عمرو في حديث وفد بني عبد القيس الذي ذكرناه قبلُ عن ابن عباس.

وقد روى ذلك مفصّلاً في حديث علي رضي الله تعالى عنه: «الإيمان قولٌ باللسان، وعقدٌ بالقلب، وعملٌ بالأركان». فأدخل أعمال الجوارح في عقود الإيمان.

وأيضًا فإنّ الأمة مجمعةٌ أن العبدَ لو آمن بجميع ما ذكره من عقود القلب في حديث جبريل عليه السلام من وصف الإيمان، ولم يعمل بما ذكره من وصف الإسلام بأعمال الجوارح، لا يسمَّى مؤمنًا، وأنه إن عمل بجميع ما وصف به الإسلام، ثم لم يعتقد ما وصفه من الإيمان، أنه لا يكون مسلمًا.

وقد أخبر ﷺ أنّ الأمة لا تجتمع على ضلالة، وليس فيه دليل على أن الإسلام غير الإيمان، أو أن المسلمين سوى المؤمنين، أو أن الإيمان ضد الإسلام.

والوجه الثاني من تأويل الخبر: أن معنى قوله: «أو مسلم» يعني به: أو مستسلم. فإذا جمع بين عقود القلب وبين أعمال الجوارح كان مسلمًا مؤمنًا. ومن لم يقل بهذا الذي ذكرناه فقد كفّر أبا بكر رضي الله تعالى عنه وجهّله في قتال أهل الرِّدة، وادَّعى عليه أنه قتل المؤمنين؛ لأنّ القومَ قد جاءوا بعقود الإيمان، ولم

يجحدوا التوحيدَ ولا أكثرَ الأعمال، وإنّما أنكروا الزّكاة، فاستحلّ قتلهم. وواطأه الصحابة على ذلك حتى استتاب من رجع منهم.

وأما الحديث الآخر الذى جاء ظاهره أن النبى ﷺ فرّق بين المؤمن والمسلم، فى أنه أعطى رجلاً ولم يعط الآخر. فقال له سعد: يا رسول الله، تركتَ فلانًا لم تعطه وهو مؤمن، فقال: «أو مسلم؟» فأعاد عليه. فأعاده رسول الله ﷺ: «أو مسلم؟» فإنما فى هذا دليل على تفرقة الإيمان والإسلام فى التفاضل والمقامات؛ أى ليس هو من خصوص المؤمنين ولا أفاضلهم، فكشف مقامه الذى خفى على سعد، كما كشف مقام حارثة عن حقيقة إيمانه، إذ كان خاملاً لا يُؤبَه له، فقال: «كيف أصبحت؟» فنطق بوَجْدِه عن مشاهدته، فقال: «عَرَفْتَ فَالزَم»؛ فهذا دليلٌ لنا فى تفضيل مقام الإيمان على مقام الإسلام، وأن المؤمنين متفاضلون فى الإيمان وإن تساووا فى أعمال الجوارح من الإسلام، وأن الإيمانَ لا حدَّ له وإن كان صحته بمحدود الإسلام. فآثر رسول الله ﷺ الذى آمن طوعًا على المكرَه. وكان رسول الله ﷺ إنّما يعطى من المؤلَّفة الرؤساء ومَن لا يُؤمَن عاديته، وجمعُه على رسول الله ﷺ، وتحريضه المشركين، كما أكرمَ الرجلَ بعد أن تكلم فيه، فقيل له فى ذلك، فقال: «هذا أحمقُ مُطاعٌ»، أو من يكثر عَشِيرته وأتباعه فيكون ظهيرًا على المؤمنين، أو مَن فيه غِنًى ومنفعةٌ وعِزّةٌ للمسلمين.

فأما الأتباع والسِّفلة من المؤلَّفة فلم يكن يؤثرهم بالعطاء، بل كان يؤثر المؤمنين، يقدِّمهم على أراذل المؤلفة وضعفائهم، كما فعل بالقِسْم الذى قسمه بين المؤمنين فأعطاهم إلاّ رجلاً من الغزاة له سجادة، محلوقُ الرأس، فإنه لم يُعطه وقال: إن هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله تعالى، والله ما عَدَل. فقال ﷺ: «إن لم أعدِل فَمَن يَعْدِل؟»، وكان ذلك أولَ قرنٍ نبغ من هذه الخوارج. أفلا تراه لم يعط هذا شيئًا، ولم يستمله، لأنّه لم يكن من خصوص المؤمنين، ولا ممن يُتَّقى بأسه، أو يظهر فى الإسلام غناه، فيُتألف بالعطاء؟!

وهذا مثل قول فرعون حين أدركه الغرقُ، فاضطره إلى الاستسلام بقوله: ﴿آمَنتُ أَنَّه لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]

أجمع أهل التفسير أن معناه: من المستسلمين.

فإن قيل: فقد روى فى آخر هذا الخبر فى بعض الروايات ما يدل على ضد هذا التأويل، وأن الرجل كان فاضلاً، لا أنه كان مستسلمًا، وهو أن فى الحديث أن النبى ﷺ قال: «إنى لأُعطى قومًا وأمنعُ آخرين أَكِلُهم إلى ما جعل الله تعالى فى قلوبهم من الإيمان، منهم فلان» قيل: إن هذا كلام مستأنفٌ من رسول الله ﷺ أفاده القائل، لأنه بُعث بجوامع الكلم. وكان يُسأل عن الشىء فيخبر به، ويزيد عليه للبيان والهداية الذى أعطى، فكأنه أراد أن يخبر بتنويع عطائه، وبضروب المعطين من الناس؛ هذا للحاجة، وهذا للفضل، وهذا للتألف؛ لأن الذى منعه كان أفضل من الذى أعطاه، إذ لو كان الأمر كما قال هذا القائل لكان الإسلام أفضل من الإيمان، ولكان المسلمون أفضل من المؤمنين، ولم يقل بهذا أحد من العلماء. إلا أن الإيمان خاص فيه التفاوت والمقامات؛ فهو يشتمل على الإسلام، والإسلام داخل فيه، والمؤمنون هم خصوص المسلمين منهم المقربون والصديقون والشهداء. والإسلام عامٌّ محدود يوصف به عموم المؤمنين، ويدخل فيه أهل الكبائر والإجرام، ولا يخرج منه من فارق الكفر ووقع عليه اسم الإيمان. كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ افتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ [آل عمران:٩٤]، وأخبر عنه بالفسوق: ﴿وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افتَرَى عَلَى اللهِ الكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلامِ وَاللهُ لاَ يَهْدِى القَومَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف:٧].

فعلى إجماعهم ـ أن الإيمان أعلى ـ إسقاطُ وَهْمِ مَن توهَّم أن الرجل كان أفضل. كيف وقد روينا تخصيص الإيمان عن النبى ﷺ نصًا أنه سئل: «أى الأعمال أفضل؟ قال: الإسلام. قيل: فأى الاسلام أفضل؟ قال: الإيمان»؟ فجعل الإيمان مقامًا فى الإسلام، ففى هذا الحديث أيضًا تخصيص للإيمان على الإسلام، لا تفرقة بينهما بمعنى قوله فى وصف الرجل: «أوَ مُسْلِم؟». وقول النبىّ ﷺ فى وصف الرجل: «أو مسلمٌ» دلَّ على بطلان ما تأوله القائل، لأن هذه اللفظة بألف الاستفهام لا تستعمل فى عرف الكلام إلا فى الوصف الأنقص والحال الأدنى ، فافهم.

وأما قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الأَعرَابُ آمَنَّا قُل لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات:١٤]. فإن هذا أيضًا من هذا النوع، معناه. قولوا استسلمنا حذر القتل. وهؤلاء ضعفاء المؤلَّفة وأراذلهم كانوا ينقمون على رسول الله ﷺ إيثاره وتقديمه المؤمنين بالعطاء عليهم وإرجاءه إياهم، فقالوا: لم لا يعطينا كما يعطى المؤمنين، فإنا مؤمنون كهُم؟ فأخبر الله تعالى بذلك عنهم وأكذبهم فى دعواهم، وهم الذين قصّ الله تعالى أخبارهم فى قوله تعالى: ﴿وَمِنهُم مَّنْ يَلمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعطُوا مِنهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعطَوْا مِنهَا إِذَا هُمْ يَسخَطُونَ﴾ [التوبة:٥٨]. ففى هذه الآية دليلٌ على أن النبى ﷺ لم يكن يعطى هذا الضرب من المؤلَّفة.

وليس فى الآية تفرقةٌ بين الإيمان والإسلام، بدليل قوله تعالى فى الآية التى بعدها: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيكَ أَن أَسْلَمُوا قُل لاَ تَمُنُّوا عَلَىَّ إِسلامَكُم بَلِ اللهُ يَمُنُّ عَلَيكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١٧]. فسمّى إسلامهم إيمانًا؛ لأنه عطف ببعض الكلام على بعض، وردّ أوّله إلى آخره، وإنما أسقط المنّة به على رسوله، وأثبتَ المنّ عليهم بنفسه، وعطف بآخر الاسم على أوّله، وغاير بين اللفظين فلم يردَّ أحدهما على الآخر، فيقول: «أنْ هداكم للإسلام» لاتّساع لسان العرب، وليفيدنا فضل بيان، وأن الإسلام والإيمان اسمان بمعنى واحد. كما قال تعالى: ﴿هَلْ مِن خَالِقٍ غَيرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ﴾ [فاطر:٣]، ولم يقل: يخلقكم؛ ليبين أن الرازق هو الخالق، وليفيد وصفًا ثانيًا وصفَ به نفسه تعالى، فهو كقوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيرَ بَيتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥ - ٣٦]. وهكذا قرأتُها فى مصحف ابن مسعود قال: «سُبْحانك تُبتُ إليك وأنا أوّل المسلمين»[1]، فلولا أنهما بمعنى لم يَجُز أن يقرأ بخلاف المعنى.

فأما ما روى عن أبى جعفر محمد بن علىٍّ: الإيمان مقصورٌ فى الإسلام. فمعناه: هو باطنه. قال: وأدار دَارةً[2] كبيرة، فقال: هذا الإسلام، ثم أدار فى

(١) الآية بلفظ: «وأنا أول المؤمنين» [سورة الأعراف:١٤٣].

(٢) فى المطبوعة: «دائرة» فى كل موضع فيه «دارة» وأثبت ما فى (د، م).

وسطها دارةً صغيرة فقال: وهذا الإيمان فى الإسلام. فإذا فعل وفعل خرج من الإيمان وصار فى الإسلام. يريد أنه خرج من حقيقة الإيمان وكماله، ولم يكن من الموصوفين الممدوحين بالخوف والورع من المؤمنين؛ لأنه خرج من الاسم والمعنى حتى لا يكون مؤمنًا بالله مصدقًا برُسُله وكتبه. ألا ترى إلى الدارةِ الصغيرة غير خارجة من الدارةِ الكبيرة التى أدارها حولها، فجعلها فيها وضرب المثل بها، لكنّها خالصها وليُّها ومخصوصةٌ فيها؟ ولو أراد أنه يخرج من الإيمان أصلاً لجعلها دارتين منفردتين، ولم يجعل إحداهما جوف الأخرى.

وكذلك جاء الخبر: «لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»، معناه: كامل الإيمان أو مؤمن حقًا؛ لأن حقيقة الإيمان وكماله بالخوف والورع، إذ الأمة مُجمِعة أن أهل الكبائر ليسوا بكافرين، وإذا فسق بالزنا وشرب الخمر خرج من حقيقة الإيمان؛ وهو الخوف والورع، ولم يخرج من اسمه ومعناه؛ وهو التصديق والتزام الشريعة.

وفيه معنى لطيف كأنه يرتفع عنه إيمانُ الحياءِ؛ لأن النبى ﷺ قال: «الحياء من الإيمان»، والمستحى لا يكشف عورته على حرام، ويبقى إيمان الإسلام والتوحيد، وإيجاب الأحكام.

وقد روينا عن الحسن بيان ذلك أنه قال: الإيمان حقيقة الإسلام. وقيل لحذيفة: من المنافق؟ فقال: الذى يتكلم بالإسلام ولا يعمل به. فسمَّى علمَ الإيمان إسلامًا وقَرنَ القول بالعمل. وقال الثورى رحمه الله: الناس عندنا مؤمنون مسلمون فى حدودهم، وفرائضهم، وفى النكاح، وفى المواريث، وفى الصلاة خلفهم، والصلاة عليهم، لا يُحاسب الأحياء، ولا يُقضى على الأموات، ونَكِلُ ما لم نعلم من سرائرهم إلى الله تعالى، ونسمع بالتشديد فنخافه، ونسمع اللين فنرجوه لأهل القبلة، ونتهم رأينا لرأى السلف قبلنا.

وما ذكرناه من أن الإسلام والإيمان قرينان لا يفترقان؛ هذا مذهب فقهاء أصحاب الحديث، وطريقة أئمة السلف رضى الله عنهم أجمعين.

• باب ذكر تفصيل بيان ما نقل عن المحدثين من التفرقة بينهما وما جاء فى معناه:

فأما ما حُكى عن بعض أصحاب الحديث أنه فرّق بين الإيمان والإسلام، فقال الزهرى: الإسلام الكلمة، والإيمان العمل. وقال عبد الرحمن بن مهدى وقد سئل عن الإيمان والإسلام فقال: هما شيئان. وقول حماد بن زيد: الإسلام عام والإيمان خاص.

فإن قول هؤلاء على جملة قولنا، وهو دليلٌ له وشاهد عليه، وأنهم لم يفرقوا بين الإيمان والإسلام تفرقة اختلافٍ ولا تضادٍّ، ولم يريدوا أن أحدهما يوجد ويصح بعدم الآخر؛ ليواطئوا مذهبَ المرجئة؛ لأنهم أبعد شىء منهم، إذ هم أصحاب أثر وتوقيف، وإنّما فرّقوا بينهما تفريقَ تفاوتٍ وتخصيصٍ؛ أى أن الإيمان أخصُّ وأعلى؛ لأنّ الزيادة والنقصان فيه، والفضائلَ والمقامات عنه، والاستثناء واجب فيه؛ وأن الإسلام عام لا يخرج منه إلاّ الكافرون، إذ ليس وراءه شىء. وعند جماعة من العلماء أن الاستثناء غير واجب فى الإسلام، لأنه محدود معلوم.

فهذا كان قصد مَن فرَّق بين الإسلام والإيمان، وهى طريقة بعض السلف، وعبارة القدماء، وهو على نحو ما فصلناه وبمعنى ما بيّناه، وإن كنّا نحن أظهرَ تفصيلاً وأبين ترتيبًا. وهذا مثل الخبر الذى روى أن النبى ﷺ سئل: «أى الإيمان أفضل؟ قال: الإسلام. قيل: فأى الإسلام خير؟ قال: الإيمان». فلم يفرق بينهما، ولكنه خصّص فجعل الإيمان حقيقة الإسلام وخالصه؛ لأنه أخبر أنه منه، فهذا من قوله: «مِن حُسن إسلامِ المرء تركُه ما لا يعنيه»، أى من تحققه بالإسلام ومن أعلى إسلامه هذا الوصف، وهذا هو نعت المؤمن الموقن الزاهد. وهذا يشبه ما مثّله أبو جعفر محمد بن علىٍّ، فى أنه أدار دارة كبيرة، وأدار فيها دارة صغيرة تخصيصًا.

وجميعُ ما شرحناه وذكرناه عن السلف يبطل قول المرجئة، والكرّامية، والإباضية، ويدحض دعواهم فى أن الإيمان قولٌ أو معرفة وعقد بلا عمل.

وهو أيضًا ردٌّ على المعتزلة القائلين بالمنزلة بين المنزلتين، الذين يقولون: مؤمن، وفاسق، وكافر؛ فلا يجعلون الفاسق مؤمنًا.

وهو ردٌّ على الخشبية، والخزمية، والقطعية، والحرورية؛ أصناف من الخوارج، يقولون: من أتى كبيرة خرج من الإيمان، وأن أهل الكبائر كفّار يحلّ قتلهم. ويقولون: إن أهل البغى من الأئمة كفرة يجب على الرعية قتالهم. ومنهم من يقول: إن من بغى على الإمام فقد كفر. بخلاف قول الله تعالى: ﴿**وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ**﴾ [الحجرات:٩]، فأمر بقتال أهل البغى بتسميته إياهم مؤمنين ولم يجعل لهم منزلة ثالثة.

وقد ابتلينا بطائفتين مبتدعتين متضادتين فى المقالة: المرجئة والمعتزلة. قالت المرجئة: إن الموحِّدين لا يدخلون النار، وإن عملوا بالكبائر والفسوق كله؛ لأن ذلك لا ينقص إيمانهم. وقالت المعتزلة: إن الفاسق ليس بمؤمن، وإن مات على صغيرة من الصغائر من غير توبة دخل النار لا محالة ولم يخرج منها خالدًا مع الكفار.

والصواب من ذلك: أن الفاسق مؤمن لا يُخرجه فسقه من اسم الإيمان وحكمه، ولكن لا يُدخله فى المؤمنين حقًا من الصديقين والشهداء، وأن أهل الكبائر قد استوجبوا الوعيدَ ودخول النار، وجائز أن يعفو الله تعالى عنهم بكرمه ويسمح لهم بجوده. كما روينا عن عليٍّ أنه قال: عليكم بالنّمط الأوسط، الذى يرجع إليه الغالى ويرتفع عنه القالى.

وقد قال ﷺ فى وصف علماء السنة ومدحهم: «يَحمِل هذا العلمَ من كلِّ خَلَفٍ عُدُولُه، ينفون عن تحريفَ الغالينَ وانتحالَ المبطلين وتأويل الجاهلين». فالغالون: هم المجاوزون للسنن والآثار. والمبطلون: هم المدعون بالرأى والقياس. والجاهلون: هم الشّاطحون من المتصوفة الضلاَّل. وعدول كلِّ خَلَفٍ من اتبع سنةَ صالحى من سَلَفٍ، ولم يبتدع فى الدِّين، ولا اتخذ وليجةً دون طريق المؤمنين؛

وهم رواة الأخبار، وحَمَلة الآثار من المحدِّثين وفقهاء المسلمين. ويوضح قولنا ويصحّحه قول الله تعالى: ﴿اليَومَ أكمَلتُ لَكُمْ دِينَكُم﴾ [المائدة:٣] إجماعًا من المسلمين، وأنها نزلت بعد نزول الفرائض وإتمام الشرائع، وفى حجة الوداع؛ وهى آخر حِجةٍ حَجّها رسول الله ﷺ بعد نزول فرض الحج؛ لأنّ سورة المائدة مدنيةٌ بإجماع من القرَّاء، وهى من آخر ما نزل من القرآن باتفاق من الفقهاء. ولم يلبث رسول الله ﷺ بعد نزول هذه الآية إلا ثلاثة أشهر وثلاثة أيام، اتفق عليه أهل التاريخ؛ لأنها نزلت يوم التاسع من ذى الحجة من آخر يوم عرفة، وقُبض رسولُ الله ﷺ لاثنتى عشرة خلون من ربيع الأول. فقال الله تعالى بعد نزول الأحكام، وأحكام الحلال والحرام: ﴿اليَومَ أكمَلتُ لَكُمْ دِينَكُم﴾. والإكمال هو إتمام الشىء الذى بعضه متعلق ببعض، فلا يقال أكمل لِمَا كان له منه بعد، ولا لِمَا لا بعض له، وإنما يقال أكمل لِمَا كان بعضه قبل بعض، فإذا وُجد جميعُه قيل: قد أكمل وتَمَّم. هذا هو حقيقة هذه الكلمة.

فلما كان الإيمان قد تقدّم بمكة وأنزل الله تعالى الفرائض والدين شيئًا بعد شىء، وكان الإكمال من الدين، دلَّ أن بعضه متعلق ببعض إلى يوم أكمله، فصارت الأعمال متعلقةً بالإيمان؛ وهما الدين المكمل.

وقال بعض السلف: من لم يَقُلْ من المرجئة أن إبليس مؤمنٌ؛ لأنه قد أقرّ بالإيمان وقال به، انكسر عليه مذهبه. ولعمرى إن إبليس ـ لعنه الله ـ موحِّدٌ لله تعالى عارفٌ به، إلا أنه لم يعمل بالتوحيد، ولم يطع من عرفه وآمَن به؛ فكفر.

فأما تعلقهم بقول الله تعالى: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجرِى مِنْ تَحتِهَا الأَنهَارُ﴾ [المائدة:٨٥]، فإنّه شَرَط القول للجنات، أو عَلَّق الجنات بالقول، فإنّما ذلك إثبات منه تعالى لتحقيق القول، وأنه قولُ إيمانٍ ويقينٍ، وأنهم غير متعوِّذين بالقول، ولا متخذوه جُنَّة كالمنافقين، إذ المنافقون قد قالوا كقولهم، إلا أنه أخبر عن سرائرهم بضدّه فقال: ﴿هُمْ لِلكُفْرِ يَومئِذٍ أَقْرَبُ مِنهُم لِلإيمانِ يَقُولُونَ بِأَفوَاهِهِم مَا لَيسَ فِى قُلُوبِهِم﴾ [آل عمران:١٦٧]. فأراد سبحانه بأن قول هؤلاء قول

المؤمنين، وأن قولهم إيمانٌ من أعمالهم؛ لأنهم منفردون بالقول دون العمل.

وفيه أيضًا دليلٌ: أن القول بالحق من الإيمان، وأنه يستحق عليه ثوابًا، لأنّه من أعمال البر بمنزلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

فأما أن يكون فيه دليلٌ أن القولَ حَسبُ هو الإيمان كلُّه، وأن الإيمان يكون قولاً لا يحتاج إلى عمل، فهذا باطلٌ بالأدلة التى قدمنا ذكرها من الآى التى شرط الله تعالى فيها الأعمال. ومن قوله فى الكفار: ﴿فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُم﴾ [التوبة:٥].

وأيضًا فإن فى نفس هذه الآية بطلان دعوى المرجئة؛ لأن الله تعالى لم يقل: فلم يثبهم الله إلا بما قالوا جنات، وإنما قال عز وجل: ﴿فَأَثَابَهُمُ اللهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ﴾، فأخبر أنه آجرهم على قولهم الحق، كما قال: ﴿فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا﴾ [سبا:٣٧]، ثم أحكم ذلك وقيّده بقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ﴾ [البينة:٥]. ولكن هؤلاء كما قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ [آل عمران:٧]. وكما قال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتم الذين يَتّبعون ما تشابه من القرآن فهمُ الذين عنى اللهُ تعالى فاحذروهم». وذلك أن الله تعالى قرنَ الأعمال بالإيمان فى كل المواضع، فلم تقف المرجئة مع شىءٍ من هذا البيان والإحكام. فلما أجمل القول فى موضع واحد لما ذكرناه من السبب تعلقوا به، ووقفوا معه. وقد قال رسول الله ﷺ: «صنفان لا نصيب لهما فى الإسلام ـ وفى لفظ آخر: لا ينالهم شفاعتى ـ القَدَرية والمرجئة». وفى الحديث الغريب: «طائفتان لا يدخلون الجنة: من قال أنّ الإيمان كلام». ورواه حذيفة فقال: «إنى لأعلم أهلَ دينين فى النار: قومٌ شِرار بلا علم، وقوم فى آخر الزمان يقولون: كان أوّلونا ضلاّلاً».

نسأل الله تعالى أن لا يصرفنا عن فهم آياته، ولا يبلونا بالكِبر، وأن يرينا سبيل

الرُّشد ويوفّقنا لاتخاذه سبيلاً، وأن يرينا سبيلَ الغيِّ ويعصمنا من اتخاذه سبيلاً. كما أخبر بذلك عمّن بلاه به فقال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِنْ يَرَوا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً﴾ [الأعراف ١٤٦] الآية.

• ذكر الاستثناء في الإيمان والإشفاق من النفاق وطريقة السلف في ذلك:

فأمّا الاستثناء في الإيمان فإنه سنّةٌ ماضية، وفعلُ الأئمة الراضية، على معنى الخوف والتقصير، وكراهية التزكية للنفس، لا على وجه الارتياب في اليقين، ولا بمعنى الشّكِّ في التصديق، إذ الإيمانُ مقامات، والمؤمنون فيه درجات. ولذلك قال الله تعالى لقوم موصوفين بأعيانهم: ﴿أُولَئِكَ هُمُ المُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال. ٤]. فهذا وصفهم بالكمال، ومدحهم بخصال الأعمال. ففي دليل خطابه أنّ ثَمّ مؤمنين غير حقًا، كيف وقد قال: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ المُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ۞ يُجَادِلُونَكَ فِي الحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٥ ـ ٦]. وقال سبحانه وتعالى في وصف آخرين: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢]. وقال في نعت الصادقين: ﴿إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات. ١٥]. وقال في مثل وصفهم: ﴿وَلَكِنَّ البِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ وَالمَلاَئِكَةِ﴾ الآية، فذكر عشرين وصفًا إلى قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ المُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧]. منها الإيثار بالمال على حبه، والوفاء بالعهد، والصبر في الأمراض والجزع والشدائد. فبعد ذلك شهد لهم بالصدق والتقوى وقال في وصف المحبوبين من الموقنين: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ المُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [التوبة: ١١١]. وقال في نعت عموم المؤمنين: ﴿وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلاَ يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ۞ إِنْ يَسْأَلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ﴾ [محمد: ٣٦ ـ ٣٧].

فشتان بين من وُصف بالمجاهدة والصدق، وبين من نُعت بالخُلف وعُرِّض

للمقت، وبين من وُصف بالحق، وبين من يُجادل فى الحق، وكم بين من قَبِلَ منه المال والنفس، وبين من ردَّ عليه المال ولم يسأله لما علم منه من البُخل والضَّغن. واسم الإيمان يجمعهم ومعناه يجتمع عليهم، إلا أن مقامات الإيمان ترفع بعضهم على بعض، وتفاوت بين بعضهم وبعض، كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العلمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]. وكقوله: ﴿لاَ يَستَوِى منكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللهُ الحُسنَى﴾ [الحديد: ١٠] يعنى الجنة على تفاوت الدرجات فيها، فجمع بينهم فى الدار كما جمع بينهم فى اسم الإيمان، ورفعهم فى الدّرجات علوًا فى المقامات، كما قال تعالى: ﴿هُم دَرَجَاتٌ عِندَ اللهِ وَاللهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

وقد روينا فى خبر: «الإيمانُ عريانٌ ولباسه التقوى، وحليته الورَعُ، وثمرته العلم»، ففيه دليل أن من لا تقوى له فلا لُبس لإيمانه، ومن لا ورع له فلا زينة لإيمانه، ومن لا علم له فلا ثمرة لإيمانه. فإن اتفق فاسقٌ ظالمٌ جاهل كان بالمنافقين أشبه منه بالمؤمنين، وكان إيمانه إلى النفاق أقرب، ويقينه إلى الشك أميل، ولم يخرجه من اسم الإيمان إلاّ أن إيمانه عريانٌ لا لبسة له، معطَّل لا كسب له، كما قال: ﴿أَوْ كَسَبَتْ فِى إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

والنفاق مقامات، قيل: سبعون بابًا. والشِّرك مثل ذلك. وهم فيها طبقات.

روى عن النبى ﷺ: «أربعٌ من كُنّ فيه فهو منافقٌ خالص، وإن صام وصلَّى وزعم أنه مؤمن: مَن إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَد أخلف، وإذا ائتمن خان، وإذا خاصم فجر». وفى بعض هذا الحديث: «وإذا عاهد غدر». فصارت خمسًا، فإن كانت فيه واحدة منهن ففيه شُعبة من النفاق حتى يَدَعها.

وفى حديث أبى سعيد الخدرى، وأبى كبشة الأنمارى: «القلوب أربعةٌ: قلبٌ أجرد فيه سراج يُزهر، فذلك قلب المؤمن، وقلبٌ مُصْمَت فيه إيمان ونفاقٌ، فمَثَل الإيمان فيه كالبَقلة يَمدُّها الماءُ العذب، ومَثَل النفاق فيه كمثل القُرحة يمدها القيح

والصديد، فأيُّ المادتين غلب عليه حُكم له بها». وفى لفظ آخر: «أيهما غلبت عليه ذهبت به».

وفى الخبر: «الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق». ففى تبعيض أخلاق الإيمان، وفى وجود دقائق الشرك وشعب النفاق ما يوجب الاستثناء فى كمال الإيمان، لجواز اجتماع الإيمان والنفاق فى القلب، ولوجود شعب النفاق، وعدم بعض شعب الإيمان من القلب. كيف، وقد جاء فى الخبر: «أكثر منافقى أمتى قرَّاؤها»، والحديث الآخر: «الشّرك أخفى فى أمتى من دبيب النمل على الصفا»؟!

وقال حذيفة: كان الرجل يتكلم بالكلمة على عهد رسول الله ﷺ يصير بها منافقًا إلى أن يموت، إنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات. وفى حديث على كرم الله وجهه: إن الإيمان ليبدو لَمَعَةً بيضاء؛ فإذا عمل العبدُ الصالحات نَما وزاد حتى يبيض القلبُ كلّه، وإنّ النفاق ليبدو نُكتةً سوداء، فإذا انتُهكت الحرماتُ نَمَت وزادت حتى يسودَّ القلب فيطبع عليه؛ فذلك الختم. ثم قال: ﴿كَلاَّ بَل رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [المطففين: ١٤].

فهذا كلّه موجب للاستثناء فى الإيمان؛ خشية خفايا الشرك، ووجود دقائق النّفاق، وخوفًا من الدعوى للحقيقة والكمال؛ لأن من قال: إنى مؤمن حقًا، فقد زكّى نفسه، وعصى ربه، لأن الله تعالى نهى عن التزكية للنفس، وعرّض المزكّى نفسه للكذب فى قوله تعالى: ﴿فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم: ٣٢]. وبقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللهُ يُزَكِّى مَن يَشَاءُ﴾. ثم قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيفَ يَفتَرُونَ عَلَى اللهِ الكَذِبَ﴾ [النساء: ٤٩ ـ ٥٠].

وقد قال إبراهيم عليه السلام فى تفسير أحد الوجهين من قوله تعالى: ﴿وَلاَ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلاَّ أَن يَشَاءَ رَبِّى شَيْئًا﴾ [الانعام: ٨٠]. ومثله قال شعيب: ﴿وَمَا يَكُونَ لَنَا أَن نَعُودَ فِيهَا﴾ يعنى ملة الكفر ﴿إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ رَبُّنَا﴾ [الأعراف: ٨٩]. ثم علّلا جميعًا بسعة العلم، وسبق المشيئة به، فلم يأمنا أن يكونا فى

سعة علم الله عز وجل وفى خفىِّ مشيئته ضد ما ظهر لهما من حكمته، فيدركها ما سبق فى علمه لقصور علمهما عن علمه، ولأنه لا مشيئة لهما دون مشيئته[1]؛ وهذا هو خوفُ المكْرِ.

وحقيقة المكرِ معنيان؛ أحدهما: أن يُظهر شيئًا ويُخفى ضده. والثانى: أن يكشف ما كان ستره، ويُفشى ما كان أسرَّه بعد الطمأنينة والعزة. والأنبياء مع فضلهم ومكانهم يستثنون فى الكفر خِيفَةَ المكر، ولا يستثنى الضعيفُ الجاهل فى الإيمان، ولا يغتر بظاهر أمره، بل ينبغى أن يستثنى فى الإسلام أيضًا وفى جميع أعمال البرّ؛ لأن القبول غير العمل، والسابقة غيرُ ما ظهر من المعاملة، ولا ينبغى أن يدعَ الاستثناء فى شىءٍ من الأحوال.

وقال بعض العلماء فى معنى قوله تعالى: ﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوتِ بِالْحَقِّ﴾ [ق: ١٩]، قال: بالسابقة. وقال بعض السّلف: إنّما يوزن من الأعمال خواتيمها. وكان أبو الدرداء يحلف بالله عز وجل: ما أحدٌ أمِن مِن أن يُسلب إيمانُه إلاّ سُلِبه. ويقال: من الذنوب ذنوب تؤخّر عقوبتها إلى سُوء الخاتمة. وهذا من أخوف ما خافه العاملون مع قوله تعالى: ﴿وَلَهُم أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُم لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون:٦٣]. وقيل: من الذنوب ذنوبٌ لا عقوبة لها إلا سلب التوحيد فى آخر نَفَسٍ، نعوذ بالله تعالى من ذلك. وقيل: هذا يكون عقوبة الدعوى للولاية والكرامات بالافتراء على الله تعالى.

وكان سهل رحمه الله تعالى يقول: من علامة الأولياء أنهم يستثنون فى كل شىء. وقال: من قال أفعل كذا، ولم يقل إن شاء الله تعالى، سأله الله عن هذا القول يوم القيامة، فإن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

وقد نهى الله تبارك وتعالى رسوله ﷺ أن لا يقول شيئًا حتى يستثنى، وأمره بالاستثناء إذا نسى، فقال تعالى: ﴿وَلاَ تَقُولَنَّ لِشَىءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللهُ﴾، ثم قال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ [الكهف:٢٣ ـ ٢٤] أى الاستثناء، أى

(١) من قوله: «ضد ما ظهر» إلى هنا ساقط من المطبوعة.

فاستثن إذا ذكرت، فتأدب ﷺ بذلك أحسن الأدب، فكان يستثنى فى الشىء يقع لا محالة. فروى أنه دخل المقابر فقال: «السلام عليكم أهل دار قوم مؤمنين، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون».

وقال سبحانه معلمًا لعباده الاستثناء ورادّهم إليه بمشيئته؛ وهو أصدق القائلين وأعلم العالمين: ﴿لَتَدْخُلُنَّ الْمَسجِدَ الحَرَامَ إِن شَاءَ اللهُ آمِنِينَ﴾ [الفتح.٢٧].

والاستثناء أصل يرد إليه من عرفه ولم ينكر الاستثناء، والأصل هو أن الإيمان يزيد وينقص، فأما زيادته فقد ثبتت بنص الكتاب من قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللهُ الَّذِينَ اهتَدَوا هُدًى﴾ [مريم:٧٦]. ومن قوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران ١٧٣]، إلى نظائره. وما يزيد فهو ينقص؛ لأن معناه موجود فى الكتاب بدليل الخطاب من قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا﴾ [الإسراء:٨٢]. وقوله: ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنهُم مَا أُنزِلَ إِلَيكَ مِن رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفرًا﴾ [المائدة:٦٤] ومن قوله تعالى: ﴿وَفِى آذَانِهِم وَقْرًا﴾ [الأنعام:٢٥]. وفى قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَرَضٌ فَزَادَتْهُم رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِم﴾ [التوبة ١٢٥].

فما يزيد الظالمين إلا خسارًا ينقصهم رجحانًا وربحًا، وما يزيدهم كفرًا ينقصهم إيمانًا، وما يكون عليهم عمًى ينقصهم بصيره، وما يزيدهم رجسًا يكون لهم من الطهارة نقصًا، من قِبَلِ أن مزيد الشر نقصان الخير، كما أن مزيد الخير نقصان الشر.

فإذا ثبت أن الإيمان يزيد بالصالحات وينقص بالسيئات وجب الاستثناء فيه؛ لأن الصالحات درجات يعلو فيها المؤمنون بحسن الولايات والمجاهدات. قال الله تعالى فى المجمل من الخطاب. ﴿وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُمْ مُؤمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٣٩]. وقال: ﴿وَاللهُ وَلِىُّ الْمُؤمِنِينَ﴾ [آل عمران:٦٨]. وقال فى المفسر: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا﴾ [الاحقاف:١٩]. وقال فى مثله: ﴿وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعمَلُونَ﴾ [الأنعام:١٢٧]. وقال: ﴿لاَ يَستَوِى القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤمِنِينَ غَيْرُ أُولِى الضَّرَرِ

وَالْمُجَاهِدُونَ فى سَبِيلِ اللهِ﴾ إلى قوله: ﴿وَفَضَّلَ اللهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

وروينا فى حديث واثلة بن الأسقع: «الإيمان يزيد وينقص»، وروى ذلك عن جماعة من الصحابة ومن لا يحصى من التابعين. وقيل لأحمد بن حنبل رضى الله عنهما: ما معنى الاستثناء فى الإيمان؟ قال: أليس الإيمان قولاً وعملاً؟ قيل: نعم. قال: فالتصديق بالقول والاستثناء بالعمل.

وقال بعض العلماء: أقربُ الناس من النفاق من يرى أنه منه برىء. وقال مرة: آمنهم له. وقال عمر مولى عفرة: أقرب الناس إلى النفاق الذى إذا زُكِّى بما ليس فيه ارتاح لذلك قلبه، وأبعد الناس منه من يتخوَّف أن لا ينجيه حقيقة ما هو فيه. وقال بشر بن الحارث: سكون القلب إلى قبول المدح أضرُّ عليه من المعاصى.

وكان سهل يقول: غفلة العالم السكون إلى الشىء، وغفلة الجاهل الافتخار بالشىء. والسكون عندهم من الدعوى، والدعوى من المعاصى. وقال حذيفة: اليوم المنافقون أكثر منهم على عهد رسول الله ﷺ؛ كانوا إذ ذاك يخفونه وهم اليوم يظهرونه. وقيل للحسن: إنّ قومًا يقولون لا نفاق اليوم، فقال: يا ابن أخى، لو هلك المنافقون لاستوحشتم فى الطرقات. وعنه وعن غيره: لو نبت للمنافقين أذناب ما قدرنا أن نطأ على الأرض.

وسمع ابن عمر رجلاً يطعن على الحجاج، فقال: أرأيت لو كان حاضرًا بين يديك أكنت تتكلم فيه بما تكلمت الآن؟ قال: لا. قال: كنا نعد هذا نفاقًا على عهد رسول الله ﷺ.

وقال رسول الله ﷺ: «من كان ذا لسانين فى الدنيا، جُعل له لسانان من نار فى الآخرة».

وفى خبر آخر: «شرّ الناس ذو الوجهين؛ يأتى هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه».

وقيل للحسن: إن قومًا يقولون: لا نخاف النفاق. فقال: والله لأن أكون أعلم أنى برىء من النفاق أحبُّ إلىَّ من تلاع الأرض ذهبًا. وقال الحسن: إنّ من النفاق

اختلافَ اللسانِ والقلب والسر والعلانية والمدخل والمخرج.

وقال رجل لحذيفة: إنى أخاف أن أكون منافقًا. فقال: لو كنت منافقًا ما خفت أن تكون منافقًا، إن المنافق قد أمنَ النفاق. لأن النفاق على ضربين: نفاق ينقل عن الملة؛ وهو الشك فى دين الله تعالى والرد لشرع رسول الله ﷺ، ونفاق لا ينقل عن الملة ولا يُخرج مِن الإسلام، ولكنه يُنقص الإيمان، ويُذهب حقيقته، ويطفىء أنواره، ويحرم مزيده، ويحبط الأعمال، ويوجب المقت والإعراض؛ وهو: الرياء، والمداهنة، والتصنُّع للخلق، والتزيُّن بالحق، وائتلاف الألسنة، واختلاف القلوب، وتفاوت القول والعمل، ومخالفة الأمر إلى ما يُنهى عنه، واختلاف السر والعلانية، وزيادة الظواهر على السرائر. وهذا المعنى من النفاق الذى خافه السلف وكانوا منه على إشفاق.

وكان سهل يقول: المرائى حقًا الذى يُحسِّن ظاهره حتى لا تنكر العامةُ والعلماءُ من ظاهره شيئًا، وباطنه خراب. وقد كان الحسن وأصحابه يسمون أهل البدع منافقين. وكان ابن سيرين وأصحابه يسمونهم خوارج.

وقال ابن أبى مليكة: أدركتُ ثلاثين ومائة ـ وفى رواية خمسمائة ـ من أصحاب النبى ﷺ كلّهم يخاف النفاق على نفسه. وقال مرة: ما منهم أحد يقول أنا على إيمان جبريل وميكائيل عليهما السلام.

وقد روينا عن علىٍّ وأبى سعيد قالا: الإرجاء بدعة. وقال أيوب: أنا أكبر من الإرجاء، أول من أحدث الإرجاء رجل من أهل المدينة، ذكره. وقال قتادة: لعن الله دينًا أنا أكبر منه، وإنّما ظهر الإرجاء بعد هزيمة ابن الأشعث، يعنى فى ولاية الحجَّاج.

وقال سفيان الثورى: من قال أنا مؤمن عند الله فهو من الكذابين، ومن قال أنا مؤمن حقًا فهو بدعة. قيل: فما تقول؟ قال: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة:١٣٦] الآية. وقيل للحسن: أمؤمن أنت؟ قال: إن شاء الله. فقيل: تستثنى يا أبا سعيد فى الإيمان؟ فقال: أخاف أن أقول نعم فيقول الله

تعالى: كذبت يا حسن، فتحق علىَّ الكلمة. وكان يقول: ما يؤمِّنني أن يكون الله عز وجل قد اطَّلع علىَّ فى بعض ما يكره فمقتني، وقال: اذهب لا قبلتُ لك عملاً أبدًا، فأنا أعمل فى غير معمل.

وكان جماعة من أهل العلم يروون السؤال عن قوله «أمؤمن أنت؟» بدعة. ويقول بعضهم: إذا قيل لك «أمؤمن أنت؟» فقل: آمنت بالله وكتبه ورسله. وقال إبراهيم: إذا قيل لك «أمؤمن أنت؟» فقل: ما أشكّ فى الإيمان، وسؤالك إياى بدعة.

وروينا عن الثورى عن الحسن بن عبيد الله عن إبراهيم النخعى: إذا سئلت أمؤمن أنت؟ فقل: لا إله إلا الله. ومنصور عن إبراهيم قال: سئل علقمة: أمؤمن أنت؟ فقال: أرجو ذاك إن شاء الله. وكان الثورى يقول: نحن مؤمنون بالله وملائكته وكُتبه ورسله، وما ندرى ما نحن عند الله.

وقال بعض العلماء: أنا مؤمن بالإيمان غير شاكّ فيه ولا أدرى أنا ممن قال الله سبحانه: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ أم لا.

وقال بعض العارفين: لو عُرضت علىَّ الشهادة عند باب الدار والموت على التوحيد عند باب الحجرة لاخترت الموت على الشهادة. قيل: ولِمَ؟ قال: لأنّى لا أدرى ما يعرض لقلبى من التغير عن التوحيد من باب الحجرة إلى باب الدار.

وقال أبو سليمان الدارانى: سمعت فلانًا ـ يعنى بعض الأمراء ـ يتكلم على المنبر بكلام، أردتُ أن أقوم فأنكر عليه، فخشيت أن يأمر بقتلى، فلم يكن بى أن أموت، ولكن خشيتُ أن يعرض لقلبى التزيُّن للخلق بأنّى أمرت بالمعروف وأنكرت على الإمام، فقُتِلتُ فى الله عز وجل عند خروج روحى، فكففتُ عن ذلك.

وقال بعض العارفين: لو عرفت أحدًا على التوحيد خمسين سنة ثم حالت بينى وبينه سارية ثم مات، لم أحكم أنه مات على التوحيد لعلمى بسرعة تقليب القلوب. وقال منصور بن راذان: إن كان الرجل من أصحاب النبى ﷺ إذا سئل:

أمؤمنٌ أنت؟ قال: أنا مؤمن إن شاء الله. وقال أبو وائل: قال رجل لابن مسعود: لقيت ركْبًا فقالوا: نحن المؤمنون. فقال: ألا قالوا: نحن من أهل الجنة؟ وقال بعض أصحاب عبد الله لرجل: أمؤمن أنت؟ قال: نعم. فذكر ذلك لابن مسعود فقال: سلوه أمن أهل الجنة أنت؟ قال: أرجو. فقال: ألاَ رجيتَ الأولى كما رجيت الثانية. ونقش ابن لبعض التابعين على خاتمه: فلان لا يشرك بالله تعالى شيئًا. فقال أبوه: هذا أقبحُ من الشرك.

وقال بعض السلف: أقرب الناس من النفاق من يرى أنه أبعدهم منه عند نفسه. وفى الخبر: أن رسول الله ﷺ كان جالسًا فى جماعة من أصحابه، فذكروا رجلاً ومدحوه وأحسنوا الثناء عليه، فبينا هم كذلك إذ طلع عليهم الرجلُ يقطر وجهه ماء من أثر الوضوء، قد علق نعليه بيديه وبين عينيه أثر السجود. فقالوا: يا رسول الله، هذا هو الرجل الذى وصفنا لك آنفًا. فلما نظر إليه ﷺ قال: «أرى على وجهه سُفعةً من الشّيطان» يعنى ظلمة. فجاء الرجل حتى سلم على رسول الله ﷺ وجلس مع القوم، فقال له النبى ﷺ: نشدتك الله هل حدَّثت نفسك حين أشرفتَ على القوم أنه ليس فيهم خير منك؟ فقال: اللهم نعم. وفى الحديث: «مَن قال إنى مؤمن فهو كافر، ومن قال إنى عالم فهو جاهل، ومن قال إنى فى الجنة فهو فى النار».

وعلّم رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه دعاء، قال فيه: «اللهم إنى أعوذ بك أن أُشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». وجاء فى الخبر: «الشرك فى أمتى أخفى من دبيب النمل على الصفا». وكان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إنى أستغفرك لما علمتُ وما لم أعلم». فقيل له: أتخاف يا رسول الله؟ قال: «وما يؤمننى والقلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء».

وقال الله تعالى: ﴿وبَدَا لَهُم مِنَ اللهِ مَا لَم يَكُونُوا يَحتَسِبُونَ﴾ [الزمر:٤٧]. قيل: عملوا أعمالاً ظنُّوا أنها حسنات، فلما كان عند الحساب والميزان وجدوها سيئات. وقيل: كانت هذه الآية مبكاة العابدين. وقيل فى معنى قوله تعالى: ﴿وتَمَّتْ

كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدقًا وَعَدلاً﴾ [الأنعام:١١٥]. قيل: صدقًا لمن مات على الإيمان، وعدلاً لمن مات على الشرك. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيهِم كَلِمَتُ رَبِّكَ لاَ يُؤمِنُونَ ۞ وَلَو جَاءَتهُم كُلُّ آيَةٍ﴾ [يونس:٩٦ ـ ٩٧]. وقال سبحانه: ﴿وَلَهُم أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون:٦٣]. وقال: ﴿أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِنَ الكِتَابِ﴾ [الأعراف:٣٧]. ﴿وإِنَّا لَمُوَفُّوهُم نَصِيبَهُم غَيرَ مَنقُوصٍ﴾ [هود:١٠٩]. وقال: ﴿وَلِلهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج:٤١]. وقال: ﴿لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الغَيبَ إِلاَّ اللهُ﴾ [النمل:٦٥].

فالاستثناء فى الإيمان هو من الإيمان، والاستثناء فى كلّ شىء من علامة الأولياء، والإشفاق من الشرك والنفاق هو من مزيد الإيمان؛ لئلا يسكن العبد إلى شىء ولا يزكّى نفسه بشىء.

وقال سرى السقطى: لو أن رجلاً دخل إلى بستان فيه من جميع الأشجار، عليها من جميع الأطيار، فخاطبه كل طير منها بلغته فقال: السلام عليك يا ولى الله، فسكنت نفسه إلى ذلك، كان أسيرًا فى يديها.

❊ ❊ ❊